ألفونسو العاشر وأطماعه الصَّليبيَّة في الممالك الإسلاميَّة

٦٥٠-٦٨٣هـ/١٢٥٢-١٢٨٤م

د. عائشة مرشود حميد الحربي
أستاذ التاريخ الوسيط المشارك -قسم العلوم الاجتماعية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة طيبة
المملكة العربية السعودية

الملخص

هدف هذا البحث إلى دراسة ألفونسو العاشر، وهو ملكُ مملكة ليون وقشتالة، مع التركيز على دوره الصَّليبي في الممالك الإسلامية المُتمثّلة في مملكة غرناطة وبعض المدن الأندلسية، والوقوف على طبيعة علاقته بالممالك الإسلامية في شمال إفريقيا، وكذلك علاقته واتصاله ببلاط السلاطين المماليك في القاهرة. وكان ألفونسو العاشر يلقب بالحكيم مرة، وبالعالم مرة أخرى؛ لشدة اهتمامه بجميع العلوم والفنون والثقافة الإسلامية وغيرها، وقد تمكَّن بفضل ما تمتَّع به من حِنكة وحكمة أن ينقل عددًا من مُصنّفات المسلمين ويترجمَ كتبهم إلى اللغة القشتالية القديمة؛ لذلك فاقت شهرتُه في مجال العلوم والفنون والمعرفة الجوانبَ العسكرية والفنون السياسية؛ ولكن له دورًا بارزًا في محاولة نقل امتداد ميدان الحروب الصليبية من بلاد الأندلس إلى الشمال الأفريقي، وبمساندة من ملوك الغرب الأوروبي، والبابوية في روما. وقد أدّت الثورة الأهلية في قشتالة إلى خلع ألفونسو العاشر من الحكم، ومن ثمّ توفي بعدها. واستخدمت الباحثة المنهجَ التاريخيَّ الوصفيَّ التحليليَّ، وأشارت نتائج البحث إلى أن علاقة ألفونسو العاشر بالممالك الإسلامية المغلوب عليها كانت شديدة الوطأة ومتجسّدة في التبعية الظالمة.

الكلمات المفتاحية: خايمي الأول، ابن الأحمر، غرناطة، بنو مرين، سانشو.

Alfonso X of Castile and his Crusader greed in the Islamic Kingdoms 650-683 AH / 1252-1284 AD

Dr. Aisha Marshood Hamid Al-Harbi
Associate Professor, Medieval History-Department of Social Sciences, College of Arts and Humanities, Taibah University S.A

Abstract

The aim of this research is to know more about Alfonso X, King of the Kingdom of Leon and Castile, with a focus on his Crusader role in the Islamic kingdoms represented in the Kingdom of Granada and some of the Andalusian cities, and to determine the nature of his relationship with the Islamic kingdoms in North Africa, as well as his relationship and connection with the court of the Mamluk Sultans in Cairo. Alfonso X was called the wise once, and the scientist once again; Because of his keen interest in all sciences, arts, Islamic culture and others, he was able, thanks to his wisdom and prudence, to transfer many Muslim works and translate their books into the ancient Castilian language. Therefore, his fame in the field of sciences, arts and knowledge exceeded the military and political arts aspects; but he played a prominent role in trying to transfer the extent of the field of the Crusades from Andalusia to North Africa, with the support of the kings of Western Europe, and the papacy in Rome. The civil revolution in Castile was led to the ouster of Alfonso X from power, after which she died. The researcher used the historical, descriptive and analytical method, and the results of the research indicated that Alfonso X's relationship with the defeated Islamic kingdoms was severe and embodied in the unjust subordination.

Keywords: James I , Ibn al-Ahmar, Granada, Beni Marin, Sancho.

المقدمة:

يعدُّ ألفونسو العاشر من أشهر ملوك مملكة قشتالة، وهو المعروف بالحكيم أو العالم، وكان له أطماع صليبية في الممالك الإسلامية، فقد كان له الدور الكبير والجهود البارزة في نقل كتب التراث الإسلامي إلى اللغة القشتالية عن طريق مجموعة من العلماء اليهود والنصارى والمسلمين، وله دور في الحروب الصليبية، وهو صاحب فكرة نقل ميدان الحروب الصليبية من الأندلس إلى الشمال الإفريقي، وبمساندة من ملوك دول أوروبا، ومن كرسي باباوات روما. وفي الجانب الآخر كانت له أنواع متعددة من العلاقات السياسية والدبلوماسية أو العسكرية مع الممالك الإسلامية، كما كانت له علاقات مع ملوك الدول الأوروبية وغيرهم، وغلب على شخصية ألفونسو العاشر الميول إلى جوانب الحياة العلمية والثقافية أكثر من الحياة السياسية والعسكرية.

وتكمن أهمية الدراسة في بحثها عن شخصية ذات طابع سياسي وصليبي، من خلال نفوذه السياسي على الممالك الإسلامية، سواء داخل الأندلس أو خارجها، وهو في الوقت ذاته صاحب شخصية علمية ثقافية؛ إذ كان له دور كبير في الجانب العلمي والثقافي.

وتتمثّل **أهداف الدراسة** في: تسليط الضوء على طبيعة علاقة ألفونسو العاشر بالممالك الإسلامية، والكشف عن أطماعه الصليبية، وكيفيةِ معاملته المسلمين في قشتالة، مع الإشارةِ إلى جهودِه في عقد التحالف الصليبي لإعداد الحملة الصليبية الأفريقية، والوقوف على أنماط علاقاته خارج الأندلس، ومناقشة عوامل القوة والضعف للممالك الإسلامية التي لها صِلاتٌ مباشرةٌ مع مملكة قشتالة.

أما عن **منهج الدراسة**: فقد اقتضت طبيعة الموضوع استخدامَ المنهج التاريخي الوصفي والاستقرائي التحليليِّ، ورصد المعلومات التاريخية والحضارية، ثم العمل على جمعها وتحليلها؛ للوصول إلى نتائج جديدة.

ومن الدراسات السابقة للموضوع: المدرع، إيمان محمد: مملكة قشتالة في عهد ألفونسو العاشر وعلاقتها بالمسلمين (٦٥٠هـ-٦٨٣هـ/١٢٥٢م—١٢٨٤م)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب للبنات بالدمام، جامعة الدمام، ٢٠٠٩م؛ ودراسة

Obodum, Christian Kusi: Alfonso X and Islam: Narratives of conflict and CO- operation in the Estoria de Espana, phD. Dissertaion, The University of Biringham, 2017.

بالرغم من أن هذه الدراسات قد خدمت الموضوع في بعض جوانبه وكشفت الغموض الذي شاب هذه الجوانب، فإن موضوع ألفونسو العاشرِ وأطماعه الصليبية في الممالك الإسلامية، مازال بحاجة لمزيد من الدراسة والتوضيح؛ ولذا جاء هذا البحث ليتفرد بمناقشة تلك الأطماع الصليبية بشيء من التحليل والاستنتاج.

واقتضت طبيعة الموضوع أن تُقسّم الدراسة الحالية إلى: مقدمة وثلاثة مباحث، اشتملت المقدمة على الموضوع، وأهميته، وأهدافه، والدراسات السابقة له، ومنهج الدراسة، وتقسيمات البحث. وتناول المبحث الأول الملامحَ الصليبيةَ في شخصيةِ ألفونسو العاشر، بينما تناول المبحثُ الثاني العلاقاتِ السياسيةَ مع الممالك الإسلامية

داخل الأندلس وخارجَها، في حين جاء المبحثُ الثالثُ عن الثورة الأهلية في بلاط مملكة قشتالة، وخُتمت الدراسة بالخاتمة ورصدت بها الباحثةُ أهم النتائج، ثم تلاها ثبت بالمصادر والمراجع.

الملامح الصَّليبيَّة في شخصية ألفونسو العاشر:

- **مولده ونشأته:**

هو الملك ألفونسو العاشر Alfonso X (٦٥٠-٦٨٣هـ/١٢٥٢-١٢٨٤م)، ابن الملك فرناندو الثالث FernandoIII (٦٢٧-٦٥٠هـ/١٢٣٠-١٢٥٢م)، ابن ألفونسو التاسع Alfonso I X (٥٨٤-٦٢٧هـ/١١٨٨-١٢٣٠م)، ملك قشتالة [١] وليون، كان مولده بمدينة طليطلة[٢] عام ٦١٨هـ/١٢٢١م، وبها نشأ، وهو الابن الأكبر للملك فرناندو الثالث، وأمه بياتريس Beatriz، التي تُوفيت وهو في الرابعة عشرة من عمره، فتزوّج والده من خوانا دي بوسيه، التي لم تكن على ودٍّ مع ألفونسو العاشر[٣]، الذي ذاعت شهرته في التاريخ بلقب الحكيم أو العالم؛ لشدة شغفه بالعلم والمعرفة، وهو الوريث للتاج الملكي بعد وفاة والده فرناندو الثالث عام٦٥٠هـ/١٢٥٢م[٤]. أحاط نفسه بمجموعة كبيرة من الرجال المتعلمين والمثقفين والفنانين، واستخدمهم في مشروعه الثقافي الكبير؛ فأنتج أعمالًا ضخمة في الأدب والقانون والتاريخ في القرن الثالث عشر الميلادي، وهو شاعر وأديب ومثقف ذاع صيته في أوروبا في تلك الحقبة الزمنية[٥]. كذلك تولى عرش المملكة وعُمره إحدى وثلاثون سنةً [٦]، وجعل مدينة إشبيلية [٧] قاعدة لحكمه، ومقرًّا لتنفيذ قراراته السياسية والعسكرية والعلمية [٨]، وكان فرناندو الثالث يغزو بلاد المسلمين في الأندلس صيفًا بينما ألفونسو العاشر يهتم بشؤون المملكة الداخلية، ويُعد لتجهيز الحملات الصليبية القادمة[٩].

وفي سبيل سعيه لتوطيد العلاقة الصليبية مع مملكة أراغون [١٠]، ولضمان الدعم المستقبلي له في إدارة دفة الحروب الصليبية ضد الممالك الإسلامية؛ فقد تزوَّج فيولانتِ ابنة الملك خايمي الأولJamesI (٦٠٩-٦٧٤هـ/١٢١٣-١٢٧٦م) ملك مملكة أراغون، وهي أخت الملك بيدرو الثالث PedroIII (٦٧٤-٦٨٤هـ/١٢٧٦-١٢٨٥م) أيضًا، وشهد عهده توترًا ملموسًا في العلاقات مع الممالك الإسلامية ببلاد الأندلس، هذا بجانب حدوث اضطرابات سياسية داخلية لمملكة قشتالة [١١].

---

[١] قشتالة: تقع بالأندلس، وعاصمتها طليطلة. الحموي، معجم البلدان، م٤/٥٣.

[٢] طليطلة: من المدن الكبرى بالأندلس، وهي مقر حكم ملوك قرطبة. الحموي، معجم، م٣/٢٦٥.

[٣] المدرع، إيمان محمد: مملكة قشتالة في عهد ألفونسو العاشر وعلاقاتها بالمسلمين، ٦٥٠هـ - ٦٨٣هـ/١٢٥٢م – ١٢٨٣م، ص٢٩- ص٣١.

[4] Gómez: Alfonso X o el Sabio, p7.

[5] O' Callaghan: The learned king the reign of Alfonso X of Castile, p.١٣١.

[6] Thacker and Escobar: Chronicle of Alfonso X, p1.

[٧] إشبيلية: قاعدة ملوك الأندلس، فهي مدينة كبرى وعظيمة تشتهر بزراعة القطن والزيتون. الحموي، معجم، م١/١٥٩.

[8] Thacker and Escobar: Chronicle of Alfonso X, p27.

[٩] المدرع: مملكة قشتالة في عهد الفونسو العاشر، ص٣١.

[١٠] أراغون: تقع بالأندلس في ناحية جيان. الحموي، معجم، م١/١٢١.

[11] Gómez: Alfonso X o el Sabio, Pp.11-12.

- **الملامح الحضارية الصَّليبيَّة في شخصيته:**

تمتّعت بلاد الأندلس في عهد ألفونسو العاشر بنهضة حضارية وعلمية كبرى، وفاقت شهرته العلمية والثقافية شهرتَه في الجوانب السياسية والعسكرية؛ لذلك لُقّب بالحكيم مرة، وبالعالم مرة أخرى؛ لميله الشديد إلى العلم والمعرفة والأدب والثقافة والفنون والموسيقى وغيرها.

كما أنشأ ألفونسو العاشرُ عددًا من المدارس في الممالك الأندلسية، وشجّع رجاله على ترجمة المؤلفات الإسلامية في شتى العلوم إلى اللغة القشتالية العامة؛ لذلك تفوّق ألفونسو العاشر في الجانب العلمي والثقافي تفوّقًا باهرًا، واكتسب شهرة واسعة، بينما أخفق في الجانب السياسي؛ بالرغم مما اتصف به من بُعد النظر وعلو للهمة [١]. وقد شكلت أعماله العلمية والثقافية في شبه جزيرة أيبيريا في القرن الثالث عشر الميلادي ثروة كبيرة في العلم والمعرفة، واستطاع ألفونسو العالم بحنكته وذكائه أن يستقطب نخبة من المفكرين المسلمين واليهود والنصارى في الترجمة والتعريب حيث كان متعطشًا إلى تطوير التعليم والثقافة، وقدم أيضًا سجلًا حافلًا عن وضع الأقليات الإسلامية في الأندلس ممَّن هم في بلاده ورعايته وتحت نفوذه وسلطانه في تلك الحقبة[٢]. وتعدّ فترة حكمه العصرَ الذهبيَّ؛ لشدة شغفه بالعلوم العربية والثقافة الإسلامية التي وصلت إلى قمة ذروتها في الأندلس [٣].

وفي عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م أمر بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة القشتالية، وكل ما يتعلّق بتاريخ الكنيسة الكاثوليكية وعلوم الفلك، كما أعدّوا تاريخًا لإسبانيا، وتاريخًا للعالم، ومجموعة أدبية ضخمة تضمَّنت أكثر من أربعمائة قصيدة، جاء معظمها في تمجيد السيدة مريم العذراء – عليها السَّلام– وغير ذلك[٤]، وبالرغم من عدائه الشديد للإسلام والمسلمين، وحروبه المتوالية على الممالك الإسلامية؛ فإنه استفاد من الحضارة الإسلامية واللغة العربية بما يفيد المصالح الصَّليبية، تبيّن ذلك عندما تولى عرش مملكة قشتالة وليون، وكانت مدينة مرسيَّة [٥] في ذلك الحين ضمن دائرة نفوذه، حيث أنشأ فيها لابن الرقوطي[٦] مدرسة لتعليم اليهود والنصارى والمسلمين بألسنتهم. ونال ابن الرقوطي مكانة مرموقة وتقديرًا عاليًا عند ألفونسو الحكيم؛ إذ قال له في أحد مجالسه الخاصة: لو تحوّلت إلى الديانة النصرانية لحظيت بمكانة ومكاسب أعلى عندي [٧]. وهذه محاولة إغراء صليبية من قِبل ألفونسو العاشر لتنصير هذا العالِم؛ نظرًا لعلمه بمدى سمو قامته العلمية والثقافية بين المسلمين.

---

(1) Soumet: récits l'histoire d'espagne, p.122.

(2) Obodum, Christian Kusi: Alfonso X and Islam: Narratives of conflict and CO - operation in the Estoria de Espana, phD. Dissertaion, The University of Biringham, 2017. p.69.

(٣) العزاوي، رغد جمال، التأثير الحضاري للأندلس في عهد ألفونسو العاشر، ص٢٥٦.

(4) Thacker and Escobar: Chronicle of Alfonso X, p.46.

(٥) مرسية: مدينة بالأندلس، اختطها عبد الرحمن بن الحكم، وهي كثيرة الأشجار والحدائق. الحموي، معجم، م٤/٢٤٩.

(٦) أبو بكر محمد الرقوطي المرسي، له معرفة واسعة بالعلوم القديمة والهندسة والمنطق، وألسن الأمم المختلفة، وهو فيلسوف زمانه في فنه. ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٣/٤٨.

(٧) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٣/٤٨.

وقام ألفونسو العاشر بدور فعّال في نقل ثقافة العرب المسلمين وتراثِهم إلى مملكة قشتالة، ثم إلى أوروبا، وكان يشرف على إدارة نخبة من علماء المسلمين واليهود والنصارى وكبار مثقفيهم في شتى العلوم والمعرفة والفنون، وأسَّس عددًا من المراكز العلمية للتعريب والترجمة، كمدرسة إشبيلية التي أُسّست عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م، ومدرسة طليطلة ومرسية، وهما من أبرز المراكز العلمية للتعريب؛ لما لهما من أهمية كبرى في نقل الأفكار إلى أوروبا، وأسّس كذلك معهدًا يختص بالدراسات الشرقية في مدينة طليطلة عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م، لتعليم اللغتين العبرية والعربية. وقد اعتمد اللغة القشتالية في أعمال التدوين، بدلًا من اللغة اللاتينية [١]، وأُطلق عليها فيما بعد المدرسة الألفونسية، نسبة إلى مؤسسها ألفونسو العالم [٢]. ولتحقيق هذا الهدف الحضاري أضحت اللغة القشتالية هي اللغة السائدة؛ حتى تحلَّ محل اللغة العربية التي كانت سائدة على جميع اللغات العالمية في الأندلس [٣]. ولعل ألفونسو الحكيم حارب بنفسه اللغة العربية وحاول القضاء عليها.

وتبيَّن كذلك أن ألفونسو العاشر قد ترجم التراث العربي الإسلامي ونقله بما يتواءم مع نزعته الصليبية وشدة عدائه للإسلام والمسلمين، كما خصّص لحياة النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أربعة عشر فصلًا لم يخصّصها لأحد من ملوك الغرب الصليبي، ووصف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأوصاف لا تليق به ولا بالإسلام والمسلمين [٤]. وقد كان يرى أنَّ الإسلام هو العقبة الحقيقية في وجه النصرانية في أوروبا في العصور الوسطى [٥].

وصفوة القول: إنَّ الأهداف الصليبية من وراء الترجمة لمعاني القرآن الكريم والعلوم الشرعية، وإنشاء عددٍ من المدارس والمعاهد وغيرها؛ لم يكن لتحقيق المنفعة لهم ولشعوبهم فحسب، وإنَّما كان بغرض تشكيك المسلمين في دينهم وهويتهم، وهدم قيمهم المُثلى.

– النزعة الصَّليبيَّة في شخصيَّته:

أظهرت الحوادث التاريخيَّة في حياة ألفونسو العالِم مدى تديّنه الشديد، ومثابرته في خدمة الحروب الصَّليبية، وعدائه للمسلمين؛ إذ كان مواظبًا على الدخول إلى الكنيسة، ويدعو بأن تتم على يديه حركة إبادة المسلمين في إسبانيا [٦]. ولتديّنه الشديد، فقد كان يخطّط مع البابا ألكسندر الرابع Alexander IV (٦٥٢-٦٥٩هـ/١٢٥٤-١٢٦١م) عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م لبناء الكنائس بإفريقيا، وكان شديد الانزعاج من تمكّن

---

[١] العزاوي: التأثير الحضاري للأندلس في عهد ألفونسو العاشر، ص٢٥٩.

[٢] ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ١٧/٣٤-٣٥؛ العزاوي، رغد جمال، حركة الترجمة في الأندلس وتأثيرها على أوروبا، ص٥-٩.

[3] Gómez: Alfonso X o el Sabio, p.38.

[٤] لمزيد من أباطيل ألفونسو العاشر حول السيرة النبوية والمصطفى صلى الله عليه وسلم انظر: الكمون، أحمد: صورة الرسول صلى الله عليه وسلم في الكتابة التاريخية عند ألفونسو الحكيم ١٢٢١م – ١٢٨٤م، ص٧٥- ص٨٧؛ Christian Kusi: Alfonso X and Islam, p.154.

[5] Christian Kusi: Alfonso X and Islam, p.141.

[6] O' Callaghan: The Gibraltar Crusade, p.13.

المسلمين من حكم الأندلس عدة قرون، بالإضافة إلى سيطرتهم على الأماكن المقدّسة في بلاد الشَّام، التي كان كثيرًا ما يتمنّى أن يحررها من أيدي المسلمين [١].

وكانت نظرة ألفونسو العاشر للمسلمين ببلاد الأندلس مثل نظرة والده فرناندو الثالث، بأن دولتهم على وشك السقوط؛ وأنَّ ابن الأحمر ملك غرناطة يُعدُّ العدو الأخير للنصرانية ويجب التخلص منه[٢]؛ لذلك كان ينتظر الفرصة المواتية له حتى يقضي على مملكة غرناطة [٣]، ويُنهي النفوذ الإسلامي في بلاد الأندلس [٤]. وكان وجود بعض القيادات الإسلامية التي وقعت تحت نفوذ ألفونسو العاشر – نتيجة لضعفها السياسي والعسكري– إشارة إلى فرض السيادة له على المسلمين في بلاد الأندلس [٥]. وكان يتعامل مع المسلمين واليهود الذين تحت نفوذ مملكته حسب تشريعاته وقوانينه الوضعية[٦]. كذلك تكمن نزعته الصليبية في محاولة السيطرة على جيرانه في شبه جزيرة أيبيريا وذلك لإحياء الإمبراطورية الرومانية القديمة[٧].

وقد استخدم ألفونسو الحكيم ما يُسمّى بحرب الوكالة في عام ٦٥٠هـ/١٢٥٢م، وذلك عندما طلب من صهره خايمي الأول ملك أراغون أن يقضي على ثورة المُدجّنين المندلعة في مرسية؛ بسبب انشغاله بالصراع مع ابن الأحمر (٦٧١-٧٠١هـ/١٢٧٣-١٣٠٢م) في غرناطة. وبالفعل شنّ ملك أراغون بقواته الهجمات المتوالية على مملكة مرسية حتى تضرّر أهلها [٨]. وفي الجانب الآخر، كان ملك قشتالة يواجه بعض المتاعب السياسية والعسكرية؛ إذ تعذّر عليه المحافظة على استمرار سيطرته على بعض المدن، على وجه الخصوص التي كان أغلب سكانها من المسلمين المُدجّنين، مثل: شريش [٩]، وشذونة [١٠]. هذا فضلًا عن متابعته المستمرة لتزايد قوات ابن الأحمر في غرناطة، وأخبار عبور السُّلطان أبي يوسف المريني (٦٥٦-٦٨٥هـ/١٢٥٨-١٢٨٥م) بقواته البحرَ قادمًا إلى الأندلس، وتنامي الثورات في مناطق الثغور على يد المُدّجنين [١١].

وظل ملك قشتالة الحكيم مستمرًا على سياسة والده فرناندو الثالث نفسها في مسألة الحروب الصليبية على الممالك الإسلامية ببلاد الأندلس والشمال الإفريقي، والمناضلة من أجل خدمة الصَّليبيين، وتقديمها على حساب مصلحة المسلمين متى ما واتتهم الظروف المناسبة والفرصة الملائمة، ومن ذلك ما حدث عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م، حيث منح ألفونسو العاشر سكَّانَ مدينة إشبيلية الصليبيين امتيازًا جديدًا يقضي بمنحهم

---

(1) O' Callaghan: The Gibraltar Crusade, p.19.

(٢) المدرع: مملكة قشتالة في عهد الفونسو العاشر، ص٥٧.

(٣) غرناطة: من مدن الأندلس الحسنة وتعني رمانة. الحموي، معجم، م٣/٣٨٣.

(٤) خطاب: قادة فتح الأندلس، ١٣٧/٢.

(5) O' Callaghan: The Gibraltar Crusade, p.12.

(6) Christian Kusi: Alfonso X and Islam, p.69.

(7) O' Callaghan: The learned king the reign of Alfonso X of Castile, p.٥.

(٨) عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٤٦٢/٤.

(٩) شريش: مدينة كبيرة وحصينة في شذونة، يكثر بها الكروم والزيتون. الحميري، الروض المعطار، ص٣٤٠.

(١٠) شذونة: مدينة بالأندلس يُنسب إليها المحدّث خلف الشذوني. الحموي، معجم، م٣/١٣٠.

(١١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٤٦٣/٤.

الحق في شراء الأراضي الإسلامية الواقعة في نطاق مناطقهم [١]، فضلًا عن وضع المسلمين الذين تحت نفوذ مملكته مواطنين من الدرجة الثانية، وذلك بفرض عقوبات متنوعة في محاولة حقيقية لتحويل المسلمين إلى النصرانية في مملكته[٢].

كما ظهرت النزعة الصَّليبية لدى ألفونسو العاشر عندما تمكّن من دخول مدينة إستجة [٣] عام (٦٦١هـ/١٢٦٣م)، بعد أن تنازل صاحبها ابن يونس عنها، ودخلها ألفونسو بجميع قواته، وأعملوا سيوف القتل في المسلمين كثيرًا، وعمدوا إلى طرد أهلها، وسبي النساء، وأسر الرجال، وهذه التصرُّفات في الأصل لا تُرتكب مع من سلّم المدينة بالأمان [٤]. كما ظهرت نزعته الصليبية الحاقدة في إصدار مرسومٍ يُحرم زواج النصرانيات من المسلمين، أو النصارى من المسلمات؛ حتى لا يتأثر النصارى بالمسلمين تحت هذا الرابط – الزواج –؛ ليحول دون تحول النصارى إلى مسلمين فيما يُعرف بالردة[٥].

وممَّا تجدر الإشارة إليه، أنَّ ألفونسو العاشر أصدر عددًا من القوانين والأحكام، التي جاءت في مجملها ضدَّ المسلمين الذين يقطنون بالمدن ذات الأغلبية النصرانية من السكان، وفي المقام الأول مع مناطق الحدود مع المسلمين، وقد مَنحَت هذه السياسة لليهود الحق في ممارسة شعائرهم الدينية من جهة، ومن جهة أخرى منع المسلمين المُدجّنين من أن يشيّدوا المساجد، أو حتى الاحتفال بمواسم الأعياد، وفرض جزية سنوية عليهم، ومنعهم من لبس الملابس الفخمة، ومنع الرِّجال من حلاقة شعر الرأس [٦].

ولعلنا ندرك أن فكرة ظهور ما يُسمّى بمحاكم التفتيش التي عملت ضد المسلمين بعد سقوط غرناطة؛ كانت استمرارًا لبعض قوانين ألفونسو العاشر، التي سبقت محاكمَ التفتيش بأكثر من قرنين من الزمان.

وتجلّت النزعة الصليبية لدى ألفونسو العاشر في وضع أهدافه؛ إذ كان يُخطّط لنقل ميدان الحروب الصليبية من شبه جزيرة أيبيريا إلى الشمال الإفريقي، بعد أن استمرت زمنًا طويلًا في الأندلس، كما حظيت فكرة النقل الصليبي بالقبول والدعم لدى ملوك أوروبا والبابوية [٧]. وقد أصدر ألفونسو العالم قوانين تحمل عقوبات قاسية ضد النصارى الذين يتحولون إلى الإسلام، منها أنهم يفقدون ميراثهم، كما أصدر مرسومًا بمنع بناء المساجد، ومصادرةِ أكثر من ثلاثين مسجدًا، كما أصدر أيضًا مرسومًا بمنع الاحتفالات بأعياد المسلمين في المدن ذات الغالبية النصرانية[٨].

---

[١] خطَّاب: قادة فتح الأندلس، ١١٦/٢؛ عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٥٧/٥.

[2] Christian Kusi: Alfonso X and Islam, p.75.

[٣] إستجة: كورة واسعة الأراضي بالأندلس. الحموي، معجم، م١٤٣/١.

[٤] عنان: نهاية الأندلس، ص٤٨.

[5] Christian Kusi: Alfonso X and Islam, p.٧٦.

[6] Gómez: Alfonso X o el Sabio, Pp.22-24.

[٧] عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٥٤٨/٤.

[8] Christian Kusi: Alfonso X and Islam, Pp.76-77.

العلاقات السياسيَّة الصَّليبيَّة مع الممالك الإسلاميَّة:

– العلاقات السِّياسيَّة مع المماليك في مصر:

تُبودلت السفارات بين مملكة قشتالة في عهد ألفونسو العاشر والسلاطين المماليك بالقاهرة منذ عام (٦٥٧هـ/١٢٥٩م)، حيث وفدت سفارة من الديار المصرية محملة بالعديد من الهدايا الثمينة، ربما كانت في أواخر عهد السُّلطان قطز (٦٥٧هـ/١٢٥٩م)، أو بداية عهد السلطان بيبرس (٦٥٨-٦٧٥هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م)[١]. وقد أشار O' Callaghan إلى أنَّ ألفونسو العاشر سبق وأن أرسل سفارة إلى بلاط دولة المماليك لمناقشة أحوال الأماكن المقدسة في بلاد الشام، مع الحرص على تقوية الروابط التجارية مع السلطنة؛ وذلك حتى تؤدي هذه العلاقات بين مملكة قشتالة وسلطنة المماليك إلى تقوية الروابط السياسية والدبلوماسية؛ ممَّا قد يدفع – في نظر مملكة قشتالة – سلطنة المماليك أن تتخذ موقف الحياد إذا ما شنَّت قوات قشتالة حربًا صليبية متوقّعة على الشمال الإفريقي [٢].

وفي عام (٦٦٦هـ/١٢٦٨م) أوفد ألفونسو العاشر سفارته إلى السلطان بيبرس بالقاهرة؛ لتدعيم العلاقات الودية، وتأكيد ذلك بتبادل المصالح المشتركة بينهما؛ فردَّ عليها السُّلطان بيبرس بالموافقة على الطلب [٣]. وفي عام (٦٦٨هـ/١٢٧٠م) أوفد ألفونسو العاشر سفارته إلى بلاط دولة المماليك؛ لطلب إبرام اتفاقية تجارية بين البلدين [٤].

وفي عام (٦٧٤هـ/١٢٧٥م) وفدت سفارة من بلاط المماليك إلى بلاط مملكة قشتالة [٥]؛ ردًّا على سفارة سابقة لألفونسو العاشر برئاسة دينار، التي تحمل معها الهدايا السنية، وتطلب استمرار العلاقات الودية بينهما [٦]؛ لذلك بعث السُّلطان بيبرس سفارة تحمل كثيرًا من الهدايا القيمة لألفونسو العاشر، الذي استقبلهم بكل مظاهر الحفاوة والإكرام [٧]. وإزاء ما سبق؛ فإن العلاقات بين المماليك في مصر ومملكة قشتالة في عهد ألفونسو العاشر اتسمت بطابع العلاقات الودية؛ وذلك خدمة لمصالحهما، سواء على الصعيد السياسي أو التجاري.

---

[١] العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٢٠٥؛وللمزيد انظر :الحجي،حياة :العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الاسبانية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين ،دار الصباح ، الكويت ،١٩٨٠م .

[2] O' Callaghan: The Gibraltar Crusade, p.20.

[٣] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٣٧؛ وللمزيد انظر : Montavez, Pedro Martinez, "Relaciones de Alfonso X de Castilla con el Sultan mameluco Baybars y sus Sucesores," Al-Andalus, 27 (1962).

[4] O' Callaghan: The Gibraltar Crusade, p.20.

[٥] المقريزي: السلوك،٦٢١/١؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م٤٤/٧.

[٦] اليونيني: ذيل مرآة الزمان ، ١١٦/٣؛ النويري: نهاية الأرب،٢٢٧/٢٨.

[٧] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص١٣١- ص١٣٣.

وفي عام (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) أوفد ألفونسو العاشر سفارة إلى بلاط المماليك بالقاهرة تحمل الهدايا الثمينة؛ لتدعيم العلاقات التجارية والسياسية بين البلدين [١]؛ فأكرم المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م) تلك السفارة، وعقد معهم شبه اتفاقية دفاعية [٢]، وعادت السفارة إلى قشتالة وهي محمّلة بالهدايا الثمينة لألفونسو العاشر [٣].

ولكل ما سبق؛ فإنه كان لدى كلٍّ من ملك قشتالة وسلطان المماليك مصالح لبلاده يسعى إلى تحقيقها، حيث عانت مملكة ألفونسو العاشر من حدوث أزمات اقتصادية كبرى؛ نتيجة لتلاعبه في العملة، حيث سكَّ عملة جديدة مغشوشة في الوزن، وتكرر ذلك مرتين؛ لجمع المال اللازم لتجهيز حملة صليبية إلى أفريقية من ناحية، وحتى يدعم طموحه في الحصول على تاج الإمبراطورية الرومانية من ناحية أخرى[٤]، حيث كان يرى أن له الأحقية في تاج الإمبراطورية الألمانية؛ حيث إنه ينحدر من أم ألمانية تعود إلى أسرة آل (هوهتشتاوفن) ابنة الامبراطور فيليب[٥]، وأنه حفيد فردريك باربا روسا (ت٥٨٦هـ/١١٩٠م)، لذلك كان مصممًا على التاج الإمبراطوري[٦]، وهذا سبب سخط الأمراء والنبلاء وثورتهم - وبتأييد من ابنه سانشو- مما أدّى إلى خلع ألفونسو العاشر من الحكم فيما بعد [٧]. وقد تسبب السعي خلف تاج الإمبراطورية الرومانية إلى نقمة الأمراء؛ إذ رأوا أنه أساء إلى السلطة وعرش الملكية وأهدر طاقة كبيرة في ذلك[٨].

ومن الواضح أنَّه كان لألفونسو تخطيطٌ لهدف آخر بعيد المدى، تمثّل في محاولته تحجيم نفوذ قوات المماليك في مساعدة الدول والإمارات الإسلامية بإفريقيا؛ وبالتالي توقّفها عن مساعدة أهل المغرب في أثناء قيامه بحملته الصليبية على الشمال الأفريقي. ومن المتوقّع أنْ كان له تخطيطٌ في جانب آخر، تمثّل في اهتمامه بأوضاع الإمارات الصليبية في البلاد الشامية، خاصة بعد سقوط إمارة أنطاكية الصليبية بأيدي المسلمين عام ٦٦٦هـ/١٢٦٨م؛ لذلك كانت العلاقات بين مملكة قشتالة وسلطنة المماليك قائمة على تبادل السفارات، وتقديم الهدايا، والفسح للنشاط التجاري.

وأمَّا دولة المماليك فكانت تعاني من أزمة توفير المواد اللازمة لصناعة السُّفن، وكانت تعتمد على الأخشاب التي تُصدّر إليها من جنوب الأناضول ولبنان، وقد أوقف صاحب أرمينيا الصغرى هيثوم الأول (٦٢٣-٦٦٨هـ/١٢٢٦-١٢٧٠م)، وكونت أنطاكية بوهمند السادس (٦٥٠-٦٦٧هـ/١٢٥٢-١٢٧٥م) تصدير

---

[١] ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٤٨/١؛ ابن تغري بردي، النجوم، ٢٩٢/٧.

[٢] موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، ص٦٥.

[٣] ابن الفرات، تاريخ، م١٥٧/٧؛ محمد سرور، دولة بني قلاوون، ص٢٣.

[4] Soumet: récits l'histoire d'espagne, p.123.

[٥] المدرع: مملكة قشتالة في عهد الفونسو العاشر، ص٣٤.

[6] O' Callaghan: The learned king the reign of Alfonso X of Castile, p.٥.

[٧] المدرع: مملكة قشتالة في عهد الفونسو العاشر، ص٣٦؛ النشار: علاقة مملكتي قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، ص ٦٧.

[8] O' Callaghan: The learned king the reign of Alfonso X of Castile, p.1.

الأخشاب إلى مصر، وجاء هذا القرار لفرض حصار اقتصادي مشترك على دولة المماليك [١]. وفي الجانب الآخر، أصدرت البابوية قرارًا مفاده تحريم التعامل التجاري مع دولة المماليك، وبموجب هذا القرار منع خايمي الأول- ملك أراغون- المتاجرة مع دولة المماليك في أدوات صناعة السفن والأسلحة والمعادن والأخشاب وغيرها [٢]. كما أصدر ألفونسو العاشر مرسومًا يمنع تصدير الأسلحة أو المواد المساعدة لصناعتها، إلى المسلمين، فضلًا عن مساعدتهم[٣].

ونتيجة لما سبق؛ فإنَّ دولة المماليك باتت بحاجة إلى فتح أبواب التعامل التجاري مع مملكة قشتالة؛ ومن ثمّ تسهيل شراء أدوات صناعة السفن منها من الخشب والحديد والأسلحة، فضلًا عن التموين الغذائي؛ وبالتالي تخفيف وطأة الحصار الاقتصادي المفروض عليهم.

- العلاقات السياسية مع بني الأحمر في غرناطة:

تمكّن ملك مملكة قشتالة فرناندو الثالث من عقد اتفاقية مع ابن الأحمر في غرناطة عام (٦٤٣هـ/١٢٤٦م)، ولمدة عشرين سنة، يلتزم ابن الأحمر بموجبها بدفع جزية سنوية تُقدّر بـ (٢٥٠,٠٠٠) مارافيدي[٤]، والتي تقدر بمائة وخمسين ألف قطعة ذهبية[٥]، بشرط تبعية مملكة غرناطة لمملكة قشتالة، وأن تكون في منطقة نفوذ الملك فرناندو الثالث وتحت حمايته؛ وبناء عليه أصبح ابن الأحمر تابعًا بين نبلاء وأساقفة قشتالة، وله الحق في حضور اجتماعاتهم، ويتمتّع بحمايتهم إلى عام (٦٦٢هـ/١٢٦٤م)؛ ولذلك كان ابن الأحمر يتقابل بملوك قشتالة وأمرائها وكبار نبلائها سنويًّا في إشبيلية لحضور الاجتماعات الصليبية، إضافة إلى تقديم الجزية السنوية[٦].

ومن الواضح أنَّ ملك قشتالة ألفونسو العاشر كان يسير على نهج والده نفسه في العلاقات السلمية مع ابن الأحمر وغيره من القيادات الإسلامية بالأندلس في فرض سلطته، مع إظهار هيمنته؛ لأنَّ وجود تلك القيادات المغلوب عليها تحت دائرة نفوذ مملكة قشتالة يُشكّل رمزًا لسيادة ألفونسو العاشر على المسلمين كافةً في الأندلس، ويوفّر له موردًا ماليًّا ضخمًا يؤهّله لتحقيق أهدافه الصليبية داخل البلاد وخارجها.

اتسمت العلاقات السياسية بين ملك قشتالة وابن الأحمر في مملكة غرناطة بالمدّ والجزر إلى حدٍّ ما، وكان ألفونسو العاشر يعقد الآمال على وفاء ملك غرناطة الذي قدِم إلى طليطلة عام (٦٥٧هـ/١٢٥٩م)؛ لتقديم العون والرأي السديد قبل انطلاق الحملة الصليبية الإفريقية؛ دلالة على صدق التبعية. وقد كان ملوك قشتالة

---

[١] رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية، مملكة عكا، ٣٧٦/٣.

[٢] هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ٧٤/٢.

[3] Christian Kusi: Alfonso X and Islam, Pp.80-81.

[٤] مارافيدي: عرفت هذه العملة بالحوليات القشتالية باسم المرابطي (Elmaravidi)، نسبة لدولة المرابطين في المغرب(٤٦٢-٥٤٠هـ/١٠٧٠-١١٤٦م)، وراجت في بلدان أوروبا المسيحية، ولذا مثلت العملة الموحدة بالعصر الوسيط، ويبدو أنها تعادل (١٥٠،٠٠٠) ذهبية بعملة مملكة غرناطة، مع وجود الدنانير الذهبية الغرناطية المتداولة داخليًّا وخارجيًّا. لمزيد من المعلومات انظر: فرحات، يوسف شكري، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص٦٧-٦٨؛ بوطالب، عبد الهادي التازي، الإمكانات الاقتصادية والسيادة الدبلوماسية، ص ٢٣٣-٢٣٨.

[٥] المدرع: مملكة قشتالة في عهد الفونسو العاشر، ص٥٨.

[6] O' Callaghan: The Gibraltar Crusade, p11, Soumet: récits l'histoire d'espagne, p.123.

يعدّون أنفسهم ورثة القوط الغربيين، وأنهم مسؤولون عن إعادة إحياء مملكتهم مرة أخرى[١]. وفي الاجتماع الصليبي الذي عُقد بمدينة جيان [٢]عام (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، كان ملك مملكة قشتالة يراهن بثقة على مساعدة ابن الأحمر وخبرته الواسعة، إضافة إلى بعض المغاربة خلف البحر، بوصفهم أصدقاء أوفياء [٣]. وتبيَّن فيما بعد أنَّ ألفونسو العاشر هدف إلى السيطرة على مدينة سلا [٤] المغربية، بينما تهاجم قوات ابن الأحمر ثغر سبتة [٥]. ربما ليحصل ملك مملكة قشتالة على إمبراطورية جديدة خارج شبه جزيرة أيبيريا.

وفي نهاية عام (٦٥٩هـ/١٢٦١م) تنامت معلومات سرية لملك قشتالة – ألفونسو العاشر– أنَّ حليفه ابن الأحمر – ملك غرناطة — امتنع عن دفع الجزية السنوية المفروضة على مملكة غرناطة، فضلًا عن دعمه لثورة المُدجنين في مرسية؛ ممَّا أثار حماس المُدجنين في مدينة شريش، حيث قاموا بثورة كبرى ضدَّ حاكم المدينة — بدعم من ملك غرناطة– وأودعوه السِّجن [٦]. ويبدو أنَّ ابن الأحمر أوجس في نفسه خيفة من ألفونسو العاشر بعد أن انهزمت حملته أمام قوات ابن العزفي (٦٤٥-٦٧٧هـ/١٢٤٨-١٢٧٩م) – صاحب سبتة– خاصة أنَّه أيقظ روح الحماسة عند ملك قشتالة للتوسّع شمال إفريقيا.

وفي عام (٦٦٠هـ/١٢٦٢م)، وتحت ضغط ثورات المُدجّنين وتهديداتهم في مدينتي مرسية وشريش ومناطق الثغور، وحركة تمرّد ابن الأحمر، وإعلان خروجه عن تبعية مملكة قشتالة؛ قرَّر ألفونسو العاشر أن يجتمع مع كبار المستشارين من القادة والنبلاء والأمراء للهجوم على أراضي ابن الأحمر وتدميرها؛ ولذا تحرّكت قوات قشتالة من إشبيلية، وهاجمت أراضي ابن الأحمر، واستطاعت أن تلحق الضرر والدمار بقرطبة وضواحيها، وأشعلوا النيران بالمدينة قبل رحيلهم [٧].

وفي عام (٦٦١هـ/١٢٦٣م) هاجمت قوات ألفونسو العاشر مدينة شريش؛ لأن ابن الأحمر استثار حماسهم للتصدي لقوات ألفونسو العاشر، وقد ضربت قوات الأخير أبراج المدينة وأسوارها، وفُرض الحصار عليها قرابة خمسة أشهر؛ فأذعن أهلها وأعلنوا الاستسلام؛ حقنًا للدماء، وحفاظًا على سلامة المدينة والبساتين والمزارع، فوافق ملك قشتالة وعهد بإدارة المدينة إلى الفرسان والنبلاء في مملكته، وعاد ألفونسو العاشر إلى إشبيلية [٨].

وفي عام (٦٦٣هـ/١٢٦٥م) بعث ألفونسو العاشر بحملة عسكرية مكوّنة من ألف فارس تحت قيادة صهره دون نونيو [٩]؛ لمهاجمة مملكة غرناطة وضواحيها، وإخضاع ابن الأحمر، وإدخاله في نطاق تبعية مملكة قشتالة

---

(1) O' Callaghan: The learned king the reign of Alfonso X of Castile, p.١٦٧.

(٢) جيان: مدينة تقع شرق قرطبة بالأندلس، ولها بلدان وقرى كثيرة. الحموي، معجم، م١/١٠٠.

(3) O' Callaghan: The Gibraltar Crusade, p.25.

(٤) **سلا:** مدينة متوسطة الحجم، تقع بأقصى المغرب. الحموي، معجم، م١/٥٥.

(٥) **سبتة:** بلدة مشهورة بالمغرب وهي حصينة، وتقابل في موقعها جزيرة الأندلس. الحموي، معجم، م٣/١٧.

(6) Thacker and Escobar: Chronicle of Alfonso X, Pp.51-52.

(7) Thacker and Escobar: Chronicle of Alfonso X, p.54.

(8) Thacker and Escobar: Chronicle of Alfonso X, p.58.

(٩) كان الصليبيون بمملكة قشتالة يستبشرون به خيرًا في حملاتهم ضد المسلمين بالأندلس، وكان واسع الشر، وشديد النقمة على المسلمين، كثير السفك لدمائهم؛ بسبب غاراته المتوالية عليهم، وكان النصر غالبًا حليفه، قُتل عام ٦٧٣هـ/١٢٧٥م. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٣١٦.

من زاوية، وإيقاف دعم ثورات المُدجّنين من زاوية أخرى؛ فرضخ ابن الأحمر وطلب الصُّلح، وتعهّد بعدم دعمه المُدجّنين في مرسية، وأنَّه سيعمل على دعم ملك قشتالة ضدهم. وبعد أن عرض ألفونسو العاشر شروط الصُّلح كافةً على الأفراد المستشارين في مملكته، وقرَّر أن يتقابل مع ملك غرناطة في قلعة النار (Alcalá de Henares)؛ حتى يوقع على بنود الصُّلح الجديدة، وأُنجزت التسوية بين الطرفين على أن يدفع ابن الأحمر جزية سنوية مقدارها (٢٥٠,٠٠٠) مارافيدي كل عام، وأن يُساند ملك قشتالة في القضاء على ثورات المُدجّنين بمرسية، نظير سلامة مملكة غرناطة من التعرّض للهجمات الصليبية المتكررة [١]. وتجدر الإشارة إلى أن الهدف من فرض هذه الجزية؛ هدم قوة مملكة غرناطة من الداخل [٢].

وفي عام (٦٦٥هـ/١٢٦٧م) علم ابن الأحمر أن ملك قشتالة عقد العزم على مهاجمة مملكة غرناطة وما جاورها من البلاد؛ لذا سارع بعقد معاهدة صداقة جديدة معه، وتنازل بموجبها لألفونسو العاشر عن عديد من البلاد والقلاع والحصون، ومنها: مدينتا شذونة وشريش [٣]. وبسبب عجز ابن الأحمر عن التصدي لهجمات قوات ألفونسو العاشر بلغ عدد ما تنازل عنه لألفونسو العاشر في هذه المعاهدة من البلاد والحصون الإسلامية ما يربو على مائة من البلاد والمدن الواقعة شرق الأندلس[٤].

ولم يكتفِ الفونسو العاشر بما حققه على أرض الواقع بل قام بطرد أعداد كبيرة من المدجنين في شريش ومدن أخرى ممَّا كان له أسوأ الأثر الاقتصادي على المملكة فيما بعد، بل وصل به الأمر أن جلب من السكان الكتالونية وأسكنهم في تلك المدن المنكوبة في محاولة لتطهيرها من المسلمين [٥].

وفي عام (٦٧٠هـ/١٢٧٢م) تآمر ضدَّ ألفونسو العاشر عدد من الأمراء والنبلاء وأكابر العائلات في قشتالة وليون، وفي مقدمتهم شقيقه فيليب؛ بسبب فرض ألفونسو العاشر للضرائب الباهظة، مع سوء إدارته للبلاد؛ ممَّا جعلهم يلجؤون إلى ابن الأحمر في غرناطة؛ نكالًا بملك قشتالة؛ ولذا لجأ ألفونسو العاشر إلى زوجته فيولانتِ، وطلب منها السعي بالوساطة بينه وبين الأمراء والنبلاء المتمرّدين عليه في غرناطة. وبعد عدة مراسلات ووعود كثيرة وعدتهم بها؛ تراجعوا إلى قشتالة [٦].

ونتيجة لاستخدام ألفونسو العاشر سياسةَ الضغط المالي على ابن الأحمر، مع مهاجمة أطراف مملكته بقواته وتهديدها؛ فقد استقطب ابنُ الأحمر الأمراء والنبلاء بالذهب والمجوهرات، وأوضح لهم أنَّ ملك قشتالة لم يلتزم بالاتفاق المعقود بين المملكتين، بالإضافة إلى فرض التبعية البغيضة عليه[٧]. ويبدو أنَّ تخوُّف ألفونسو العاشر كان من ابن الأحمر، الذي يرى أن هذا الانشقاق في مملكة قشتالة بمنزلة الورقة الرابحة التي يستخدمها للضغط

---

(1) Thacker and Escobar: Chronicle of Alfonso X, p.61.

(2) O' Callaghan: The Gibraltar Crusade, p.11.

(٣) عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٤٣٥.

(٤) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص١١٢.

(5) O' Callaghan: The learned king the reign of Alfonso X of Castile, p.١٦.

(6) Thacker and Escobar: Chronicle of Alfonso X, P.3.

(7) Thacker and Escobar: Chronicle of Alfonso X, p64.

على ألفونسو العاشر؛ حتى يغيّر سياسته إزاء مملكة غرناطة. وربَّما أراد ابن الأحمر استمالةَ الأمراء والنبلاء بأن يشتت شملهم؛ ومن ثمّ يأمن مكرهم وشرهم.

وفي عام (٦٧٥هـ/١٢٧٧م) شنّت قوات المسلمين بقيادة السلطان أبي يوسف المريني (٦٥٦-٦٨٥هـ/١٢٥٨-١٢٨٥م)، وبالمشاركة مع قوات ابن الأحمر في غرناطة هجومًا مشتركًا على قوات ألفونسو العاشر، وهاجمت أطراف شذونة، وتمكّنت من النزول على حصن بني بشير، والدخول إلى الحصن عنوة، وقتلوا الرجال، إضافة إلى سبي النساء والحصول على كثير من الغنائم [١].

كان ابن الأحمر من جهة يلجأ إلى التحالف مع ألفونسو العاشر ضد الممالك الإسلامية، ويتنازل له عن كثير من البلاد والحصون والقلاع [٢]. ومن جهة أخرى، فإنه إذا توجّس خيفة من ملك قشتالة؛ فإنه يتحالف مع الممالك الإسلامية طالبًا منهم العون والمدد والنجدة [٣].

وصفوة القول: إنَّ ملك مملكة غرناطة كان يحافظ على مملكته عن طريق التحالف مع القوة العظمى، فتارة يتحالف مع عدو المسلمين ألفونسو العاشر، وتارة أخرى يتحالف مع الممالك الإسلامية ضد عدوهم المشترك، ولعله هدف من وراء سياسته المزدوجة إلى دفع العدوان وحماية مملكته.

العلاقات السياسية مع بني مرين في المغرب:

معركة ثغر سلا التاريخية ونتائجها:

منذ أن تولى ألفونسو العاشرُ الحكم، ونُصِّب ملكًا على قشتالة وليون وما جاورها من البلاد؛ فقد كان لديه هاجس فكرة نقل ميدان الحروب الصليبية من الأندلس إلى الشمال الأفريقي، فأنشأ أحواضًا خاصة بصناعة السفن في إشبيلية [٤]، واستنفر همة البابوية في روما، التي باركت له بدورها ودعمت مشروعه الصليبي [٥]، إذ منح البابا أنوسنت الرابع الموافقةَ لسير الحملة الصليبية عام (٦٥٠هـ/١٢٥٢م) وأتاح لملك قشتالة أن يأخذ ثلث العشور وذلك تمويل الحملة الصليبية[٦]. وهنا يمكن القول بأن الحملة العسكرية لملك قشتالة تحمل الطابع الصليبي. وفي عام (٦٥٥هـ/١٢٥٧م) بعث ألفونسو العاشر حملة استكشافية تجسسية إلى الشمال الإفريقي لجمع المعلومات اللازمة لنجاح الحملة الصليبية[٧].

كما طلب مساعدة ملك إنجلترا هنري الثالثHenry III (٦١٢-٦٧٠هـ/١٢١٦-١٢٧٢م)[٨]، وطلب منه بإلحاحٍ شديدٍ الانضمام إلى هذا المشروع[٩]، وعقد مؤتمرًا في مدينة طليطلة عام ٦٥١هـ/١٢٥٤م) إذ وعد

---

[١] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٣٢٥- ٣٢٧.

[٢] عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٤٣٥.

[٣] عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥/١٧٠.

[٤] عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٥٤٨؛ O' Callaghan: Reconquest and Crusade In Medieval Spain, p.150.

[5] O' Callaghan: The Gibraltar Crusade,P p.12-15.

[6] O' Callaghan: The learned king the reign of Alfonso X of Castile, p.١٦٨.

[7] O' Callaghan: The learned king the reign of Alfonso X of Castile, p.١٧٠.

[٨] يمكن القول: إن ملك إنجلترا لم يدخل في هذه الحملة الصليبية؛ نظرًا لظروف إنجلترا السياسية والعسكرية.

[9] O' Callaghan: The Gibraltar Crusade, pp.12-15.

ملك إنجلترا بالمشاركة وتقديم يد العون والمساعدة[١]، كما دعا ملك النرويج هاكون الرابع Hakone IV (٦١٣-٦٦١هـ/١٢١٧-١٢٦٣م) لمشاركته بأسطوله البحري؛ وذلك لتعزيز طموحات ألفونسو العاشر وحملته الصليبية المرتقبة [٢]. ونجح أيضًا في إقناع ملك أراغون بالانضمام إلى هذا المشروع [٣]، وعقد تحالفًا مع ملك مملكة غرناطة الإسلامية [٤]، وبعضًا من عملائه بشمال المغرب [٥]. واستطاع أن يحشد قواتٍ بحريةً عن طريق مجموعة تجار من إيطاليا وبيزا وكتالونية ومارسليا [٦]، فضلًا عن تقديم بعض من الامتيازات داخل مملكته؛ دعمًا لفكرته[٧]. وتوجّه الأسطول نحو شمال إفريقيا، قاصدًا مدينة سلا المغربية عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، وكانت قيادة القوات قد أُسندت إلى الأميرال خوان غارسيا Juan Garcia[٨].

وأعملوا السيف في الرقاب، وقتلوا وسبوا كثيرًا من الناس، كما غنموا الأموال الوفيرة [٩]، واقتادوا النساء والأطفال إلى الجامع الكبير، وهتكت الأعراض ونهب الجامع ودمرت المنازل[١٠]، وظلوا في المدينة قرابة خمسة عشر يومًا، وتمكّن المغاربة بقيادة السُّلطان أبي يوسف يعقوب المريني من محاصرة قوات ألفونسو العاشر، الذين هربوا مصطحبين معهم الأسرى والغنائم بعد دمار مدينة سلا [١١]، وإشعال النار فيها بعد حصار دام ثلاثة عشر يومًا[١٢].

وخلاصة القول: إنَّ هذه الحملة تمَّ صدها، ولم تستطع تحقيق أهدافها الصليبية، وكانت أول مواجهة لها في شمال إفريقيا في عهد ألفونسو العاشر، ليعقبها مجموعة من حملات بني مرين داخل الأندلس وضد بلاط قشتالة.

---

(1) O' Callaghan: The Cortes of Castile leon 1188- 1350, p.23.

(2) O' Callaghan: The Cortes of Castile leon 1188- 1350, p.98.

(3) O' Callaghan: The Gibraltar Crusade, Pp.22-22.

(4) O' Callaghan: The Gibraltar Crusade, p.25.

(٥) ابن عِذاري: البيان المغرب، ص٤٢٠؛ عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٥٤٨-٥٤٩.

(6) O' Callaghan: Reconquest and Crusade In Medieval Spain, p.150, The Gibraltar Crusade, Pp.13-17.

(7) O' Callaghan: The Gibraltar Crusade, p18.

(8) O' Callaghan: The learned king the reign of Alfonso X of Castile, p.171.

(٩) ابن عِذاري: البيان المُغرِب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، ص٤٢٠-٤٢٢؛ ابن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص٩٣-٩٤؛ عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٥٤٨-٥٤٩؛ O' Callaghan: The Gibraltar Crusade, Pp.26-27.

(10) O' Callaghan: The learned king the reign of Alfonso X of Castile, p.١٧٣.

(١١) ابن عِذاري: البيان المُغرِب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، ص٤٢٠-٤٢٢؛ ابن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص٩٣-٩٤؛ عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٥٤٨-٥٤٩؛ O' Callaghan: The Gibraltar Crusade, p.27.

(١٢) الحلاوي، حسام محمود المتولي: العلاقات السياسية بين مملكة بني مرين ومملكة قشتالة في عهد السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبدالحق، ٦٥٦هـ- ٦٨٥هـ/١٢٥٨م – ١٢٨٦م، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد ٥٢، يناير ٢٠١٣. ص٨٧٨.

- **حملات بني مرين على إسبانيا النصرانية:**

في عام (٦٦١هـ/١٢٦٣) وصلت حملة من المغرب، أرسلها السُّلطان أبو يوسف يعقوب المريني نجدةً لابن الأحمر، الذي تعرّضت بلاده إلى هجمات قوات ملك قشتالة، وأسند قيادتها إلى عامر بن إدريس ومعه ثلاثة آلاف فارس، اجتازوا الجزيرة الخضراء [١]، وشنّوا غاراتهم على مدينة شريش، التي وقعت في أيديهم، وغنموا كثيرًا من الغنائم. وتعدّ هذه الحملة أول نذير لألفونسو العاشر في الأندلس [٢]. ولعلَّ هذه الحملة قد سبّبت الاضطراب لملك قشتالة، الذي كان يطمع في نقل ميدان الحروب الصليبية إلى الشمال الإفريقي، وجعلت حكم مملكته محفوفًا بالمخاطر.

وفي عام (٦٦٨هـ/١٢٧٠م) انشق عن ألفونسو العاشر مجموعة من الأمراء والنبلاء والقادة، وفي مقدمتهم شقيقه الأمير فيليب، فلجأوا إلى بلاط السُّلطان أبي يوسف يعقوب المريني، الذي كان يعدّهم وسيلة للضغط على مملكة قشتالة، واتخذوا من مدينة غرناطة مقرًا لجهودهم وتحركاتهم، وكادت أن تقع الحرب بين الطرفين لولا تدخل ملك قشتالة باسترضائه الأمراء والنبلاء وعلى رأسهم الأمير فيليب[٣].

واجهت ممتلكات ألفونسو العاشر هجمات من قِبل السُّلطان أبي يوسف المريني، الذي فرض الحصار على طليطلة وإشبيلية. ومن جانبه عدّ ملك قشتالة هذا الهجوم إهانة كبرى للكاثوليكية، فعمد إلى إرسال رئيس الأساقفة في طليطلة إلى المقر البابوي بروما، طالبًا منه العون والنجدة من خلال تحفيز البارونات في فرنسا وإنجلترا وأراغون وكونت تولوز وغيرهم؛ لتجهيز حملة صليبية جديدة تستهدف شمال إفريقيا، موضحًا لهم تحقيق الانتصار العظيم، والحصول على الغنائم الوفيرة، فضلًا عن تطهير النفس وغفران الذنوب وتطهير النفس من الذنوب إذا هم شاركوا في هذا المشروع؛ وبناء عليه فإن البابوية في روما ستمنح صكوك الغفران لكل من أسهم في تجهيز الحملة أو اشترك فيها[٤].

وعلى أي حال؛ فإن هذه الحملة لم تتمكّن من تحقيق أهدافها، ووُئدت قبل مسيرها، بسبب تعرّض قوات حليفه ابن الأحمر ملك غرناطة للهزيمة الساحقة – عند هجومها على مدينة سبتة– على يد قوات ابن العزفي، وممَّا زاد الأحوال سوءًا وصولُ أخبار سريَّة لألفونسو العاشر عن طريق الأساقفة، تفيد بأنَّ حليفه ملك غرناطة نقض الهدنة، وامتنع عن تنفيذ شروط الصُّلح التي تنصّ على دفع الجزية السنوية، وأنَّه – ابن الأحمر – زيادة على ذلك ساعد ثورة المُدجّنين مرة أخرى في مرسية – القائمة ضد ملك قشتالة– وأنَّ أهل شريش أعلنوا الثورة على والي المدينة وأودعوه في السجن؛ وكل هذا يُمثّل تهديدًا مباشرًا لحكم ألفونسو العاشر وسلطته [٥].

---

[١] الجزيرة الخضراء: مدينة شهيرة بالأندلس تُقابل من البر سبتة. الحموي، م٢/٥٥.

[٢] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٣٠٣.

[٣] عنان: دولة الإسلام، ٥/٨١؛ المدرع: مملكة قشتالة في عهد الفونسو العاشر، ص٣٠.

[4] O' Callaghan: Reconquest and Crusade In Medieval Spain, p17, Pp.179-181.

[5] O' Callaghan: Reconquest and Crusade In Medieval Spain, p.122, The Gibraltar Crusade, p28-p33, Thacker and Escobar: Chronicle of Alfonso X, pp.51-52.

- **معركة إستجة أسبابها ونتائجها:**

مقدّمات المعركة وأسبابها:

في عام (٦٧٣هـ/١٢٧٥م) خرج ملك قشتالة بنفسه؛ رغبة في مقابلة ابن الأحمر بمدينة جيَّان، وفي تلك الأثناء وصلته الأخبار العاجلة، التي في مجملها أنَّ قوات السُّلطان أبي يوسف المريني بقيادة أبي زيان قد اجتاحت البلاد؛ فقتلت وأسرت وغنمت، ووصلوا إلى أبواب مدينة شريش، وحملوا كل الغنائم إلى الجزيرة الخضراء؛ وإزاء ما سبق أمر ملك قشتالة بسرعة شنّ هجوم على مملكة غرناطة وتدميرها؛ لعلم ابن الأحمر بكامل تفاصيل قوات المغاربة، إن لم يكن هو من دعاهم وشجّعهم على القدوم إلى الأندلس؛ لكن فرسان ألفونسو العاشر تعذّر عليهم القيام بالهجوم السريع على أطراف الحدود [١]. ولعل العلة تكمن في وصول خبر قوات السُّلطان المنصور أبي يوسف الثانية إليهم، فتخوّفوا واعتذروا عن القيام بالرد المباشر في الوقت الراهن.

وفي عام (٦٧٤هـ/١٢٧٥م) وصلت قوات أبي يوسف المريني إلى مدينة شريش، وعاث في نواحيها وحاصرها أشد الحصار؛ ممَّا أجبر الرهبان وأصحابَ القرار في المدينة على الخروج وطلب التفاوض والصلح مع أبي يوسف، فاستجاب لهم وسحب قواته وعاد إلى المغرب[٢].

وفي الجانب الآخر، كان ألفونسو العاشر في مدينة كونكا يتابع أخبار حملة المغاربة؛ إذ وردت إليه معلومات بواسطة أحد عملائه اليهود – يُسمّى أبين نزار، ونقلًا عن صهره الأمير دون نونيو– أنَّ على الملك ألفونسو سرعة التوجّه إلى مملكة قشتالة. وفي اليوم التالي وصل إليه خطاب سري بواسطة أحد رجال الدين – يُسمّى بيدرو خابِم– أكّد فيه صحة المعلومات السابقة، بأنَّ على الملك سرعة التوجّه إلى قشتالة، ومن ثم انتقل إليها ألفونسو العاشر [٣]. ويبدو أنَّ العيون والجواسيس كانوا نشطاء، سواء أكانت عن طريق الأساقفة أو رجال الدين.

وعندما وصل ألفونسو العاشر إلى قشتالة، وردته رسالة من أحد جواسيسه – وهو من أساقفة قرطبة– ومن قائد قواته الأمير دون نونيو؛ مضمونها أنَّ السُّلطان أبا يوسف يعقوب المريني قد جهّز قوات كبرى لمهاجمة ممتلكاته، وأنَّه عبر البحر بقواته، ونزل بها في الجزيرة الخضراء، وجعل مدينة طريف مركزًا لتحركاته العسكرية، وقابل هناك ملك مملكة غرناطة [٤]، والزعماء في مالقة [٥]. ويبدو أنَّ العملاء كانوا شديدي الانتشار في الجزيرة الخضراء وما جاورها، خاصَّة من النصارى الموالين لمملكة قشتالة.

---

[١] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص١١٣-١١٤؛ الذخيرة السنية، ص١٤٤؛ Thacker and Escobar: Chronicle of Alfonso X, p.85

[٢] المدرع: مملكة قشتالة في عهد الفونسو العاشر، ص٧١.

[3] Thacker and Escobar: Chronicle of Alfonso X, p.86.

[4] Thacker and Escobar: Chronicle of Alfonso X, p.200.

[٥] **مالقة:** من مدن الأندلس العامرة، يُنسب إليها العالم عزيز المالقي. الحموي، معجم، م٤/١٩٧.

المعركة: المواجهة والنتائج:

وردت الأخبار إلى دون نونيو – قائد قوات ألفونسو العاشر – أنَّ قوات السُّلطان أبي يوسف المريني دخلت إلى الجهة الشرقية من قرطبة، ومارست فيها أعمالًا عسكرية شتى ما بين القتل والأسر والسبي. وبحكم أن دون نونيو ذو مهارة وخبرة عالية في إدارة المعارك؛ فإنه أرسل إلى قوات المملكة المرابطة على الثغور والأمراء والنبلاء والفرسان كافةً، ووعدهم بدفع مرتبات ومكافآت مجزية لهم بعد انتهاء المعركة، وجهّز قواته، ونظّم الفرسان والرجال؛ استعدادًا للمواجهة الفاصلة. وفي أثناء ذلك وردته أخبار بأنَّ قوات السُّلطان أبي يوسف تسير بالقرب من مدينة إستجة، وهي محملة بالغنائم والأسرى ومتجّهة إلى الجزيرة الخضراء.

وحاول الأمير دون نونيو بالرغم من كثافة جيشه –الذي قُدّر في بعض المصادر بـ(٩٠،٠٠٠) فارس [(١)]–ربح الوقت قبل الالتحام؛ حتى يجتمع أكبر عدد ممكن من قوات مملكة قشتالة تحت رايته، والتقى الطرفان في الثاني عشر من جمادى الآخرة ٦٧٤هـ/التاسع من سبتمبر ١٢٧٥م، بالقرب من مدينة إستجة، وتقاتلا قتالًا شديدًا؛ أسفر عن قتل القائد الأمير دون نونيو، وكل من احتمى به، وهرب من استطاع منهم الهروب، وقُتل من قوات ألفونسو العاشر أعدادٌ هائلة، وعُثر على جثمان قائدهم، فاحتز رأسه وأرسله إلى ابن الأحمر في غرناطة؛ فسعد بذلك، وبعث ابن الأحمر بالرأس – وهي مخضبة بالطيب– إلى ملك مملكة قشتالة، ويُقدّر عدد القتلى من قوات ألفونسو العاشر بحوالي (١٨،٠٠٠) ألف فارس، فضلًا عن الغنائم والأسرى التي لا تُحصى [(٢)]. ويبدو أنَّ ملك غرناطة عندما بعث برأس قائد قوات ألفونسو العاشر، إنمَّا كان تمثيلًا لتبعيته لمملكة قشتالة.

–الصُّلح بين ملك قشتالة وملك المغرب:

توقّفت قوات أبي يوسف المريني بعد معركة إستجة أيامًا قليلة؛ بغرض الراحة، واستئناف الاستعداد لمهاجمة أراضي ألفونسو العاشر مرة أخرى. وفي الجانب الآخر، كان ملك قشتالة متضجرًا بسبب كثرة الضربات المؤلمة التي خسر فيها كل ثمين من المال والأنفس، ففي عام (٦٧٥هـ/١٢٧٧م) هاجمت قوات المغاربة حصون الوادي الكبير، وألحقت الخسائر الفادحة بالمال والأرواح، وواصلت القوات هجومها على أسوار إشبيلية وغنمت كثيرًا. وأمام هذه الضربات المتوالية، لم يكن أمام ملك قشتالة خيار إلَّا طلب عقد الصُّلح مع السلطان أبي يوسف، فأوفد عددًا من الأساقفة والرهبان إلى السُّلطان المريني؛ لطلب عقد هدنة صلح، وأدّى الوفد القشتالي القسم أمام السُّلطان أبي يوسف بالالتزام بشروط الصُّلح، وأن يكون صلحًا قائمًا إلى الأبد، وإذا خالف ملك قشتالة شروط الصلح؛ فإنهم سيخلعونه من الحكم؛ لكن السُّلطان ردّ أمر الصلح إلى ابن الأحمر، الذي وافق بدوره على شروط الصُّلح [(٣)].

---

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص١٤٨.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٣١٦– ص٣١٩؛ عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ١٠٠/٥؛ المخلاوي: العلاقات السياسية بين مملكة بني مرين ومملكة قشتالة، ص٨٨٤؛ Thacker and Escobar: Chronicle of Alfonso X, Pp.202-204.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٣٢٧–٣٢٨.

– نكث الصُّلح، وحصار الجزيرة، والمعركة الحاسمة:

عندما تأكد ألفونسو العاشر من عودة السُّلطان أبي يوسف المريني إلى بلاد المغرب، خرج ليطلّع على أوضاع الأراضي المدمّرة التابعة لمملكته؛ فانتابه الحزن الشديد لما شاهده، فعاد إلى إشبيلية وعقد العزم على نقض هدنة الصُّلح والسيطرة على الجزيرة الخضراء، لأسباب أهمها: منع وصول المدد والنَّجدة من وراء البحر «المغرب»، وفصل مملكة غرناطة عن المغرب حتى يسهل عليه تدميرها؛ لأنها أسهمت في تدمير ممتلكاته وأراضيه، فضلًا عن قطع الجزية التي تُعدُّ منبعًا غزيرًا لمملكة قشتالة.

وإزاء ما سبق، وعندما عاد ملك قشتالة إلى إشبيلية؛ أمر بسرعة تجهيز أسطول بحري كبير، وآلات حصار مختلفة، وأسلحة متنوّعة، وتحضير المؤونة الكافية للقوات، فجُهِّزت أكثر من أربعة وعشرين سفينة حربية مختلفة في الأحجام، ومتنوّعة في المهام. وفي مطلع عام (٦٧٦هـ/١٢٧٨م) اجتمع كبار القادة من الأمراء والنبلاء والفرسان، واكتمل إعداد الأسطول، وجُهّزت الآلات والعدة والعتاد، وعهد ألفونسو العاشر بقيادة القوات البرية والبحرية إلى ابنه الأمير بيدور، وأبحر الأسطول البحري، وانطلقت القوات البرية نحو الجزيرة الخضراء، وضربت عليها حصارًا شديدًا، وبدأ القتال برًّا وبحرًا، وكانت تطورات أخبار القتال ترد إلى مقر القيادة العليا بإشبيلية في الحال، وقذفوا المدينة بالمجانيق [١] الكبيرة، وهلك أكثر الناس نتيجة للقتل والجوع والأسر [٢].

– عوامل الهزيمة وتحطّم الأسطول:

في أثناء فرض الحصار القشتالي الصليبي على الجزيرة الخضراء، والمعركة دائرة بين الطرفين؛ إذ بعوامل الهزيمة تتضافر لدى قوات ألفونسو العاشر في الجزيرة الخضراء، وعندما طال أمد الحصار طالب القادة والفرسان بمرتباتهم، وبعثوا بذلك إلى الملك القشتالي، الذي جمع المال بواسطة عامله اليهودي دون زاغ في مملكة قشتالة وليون، وأمره بأن يُسلّم الجند المقاتلين بالجزيرة الخضراء مرتباتهم من هذه الأموال؛ حتى يواصلوا أعمال الحصار والقتال؛ ولكن الأمير سانشو ابن الملك ألفونسو العاشر استوقفه في الطريق، وانتزع منه المال، وأرسل المال إلى والدته الملكة فيولانتِ [٣] في مملكة أراغون؛ لأن علاقتها سيئة بزوجها ألفونسو العاشر ؛ ونتيجة لتأخر المرتبات على الجنود، وقلة المؤونة؛ فقد تسلّل الملل والإحباط إلى نفوس الفرسان، وانتشر بينهم الوباء[٤]؛ مما أدّى إلى تفاقم الوضع سوءًا على قوات قشتالة. وفي ظل هذه الأوضاع السيئة على قوات ملك قشتالة؛ إذ بقوات السُّلطان أبي يوسف يعقوب تصل من وراء البحر، وانضمت إليه قوات ابن العزفي في سبتة، وقوات ابن الأحمر في غرناطة؛ ولذا وقعت قوات ملك قشتالة بين عدة أخطار تمثّلت في: الوباء ونقص التموين، ونيران قوات

---

[١] **المنجنيق**: آلة حربية تُستخدم لدك الحصون، وقذف العدو بالأحجار والكرات النفطية، وهي آلة متعددة الأغراض وتضرّ بالعدو. خطاب، العسكرية العربية، ص١٦١؛ السلوم، معجم المصطلحات العسكرية، ص ١٤١.

[2] Thacker and Escobar: Chronicle of Alfonso X, Pp.221-227.

[٣] توترت العلاقة بين ألفونسو وزوجه الملكة فيولانتِ؛ لأنه أعدم زمرة من الأمراء والنبلاء الثائرين عليه في غرناطة، فرحلت إلى أهلها بمملكة أراغون؛ ولذا عمد ابنها الأمير سانشو إلى مراسلتها طالبًا منها العودة، ومحاولة استرضائها بالمال. Thacker and Escobar: Chronicle of Alfonso X, P.227

[4] Thacker and Escobar: Chronicle of Alfonso X, p.227.

التحالف الإسلامية، التي تمكّنت من تدمير الأسطول البحري، وألحقوا الهزيمة بقوات ألفونسو العاشر، وجعلوهم ما بين قتيل، أو أسير، أو هارب [١]. وكثرت آلام ألفونسو العاشر وزادت جراحه، وتحطّمت آماله بتحطّم أسطوله ومقتل رجاله.

الثورة الأهلية في قشتالة ووفاة ألفونسو العاشر:

في عام (٦٧٩هـ/١٢٨١م) أصدر ملك قشتالة ألفونسو العاشر أوامره بزيادة الضرائب لجمع المال، وأصدر مرتين عملة مغشوشة الوزن [٢]؛ حتى يتمكّن من تجهيز حملة عسكرية تدمّر مملكة غرناطة ويضمها إلى مملكته [٣]؛ وكذلك طمعًا في تدعيم وتحقيق حلمه في التاج الإمبراطوري الألماني[٤]، ونتيجة رفع الضرائب فقد ثار الأمراء والنبلاء عليه، وفي مقدمتهم شقيقه الأمير فيليب، والأمير سانشو بن ألفونسو العاشر. وفي مطلع عام (٦٨٠هـ/١٢٨٢م) جمع الأمير سانشو الأساقفة وكبار الأمراء والنبلاء في المملكة، وأوضح لهم أنَّ والده قد أرهق المملكة بفرضه الضرائب، وتبديدها في غير مكانها الصحيح، وأنَّ مصلحة المملكة تقتضي خلعه من الحكم [٥].

وبعد أن دعا الأمير سانشو إلى الثورة ضدَّ والده، وخلعه من الحكم عام (٦٨٠هـ/١٢٨٢م)؛ لم يكن أمام ألفونسو العاشر المخلوع خيارٌ إلَّا أن يطلب المساعدة من السُّلطان أبي يوسف يعقوب المريني في المغرب، فبعث إليه وفدًا من الرهبان والأحبار ليلتمسوا منه طلب المساعدة والمدد لألفونسو العاشر؛ حتى يتمكّن من استعادة ملكه في مملكته قشتالة، فوافق السُّلطان المريني على طلبه وعبر البحر، والتقى به في الجزيرة الخضراء، وقدّم ألفونسو العاشر تاجه رهينة في مقابل ما سينفقه السُّلطان المريني في سبيل استعادة ألفونسو العاشر لملكه[٦]، فأمدَّه السلطان أبو يوسف بمائة ألف من الذهب حتى يحشد بها قواته، ويستردّ مملكته، وهاجم السلطان بقواته قشتالة وضواحيها وحصل على الغنائم الوفيرة، ورجع إلى الجزيرة الخضراء، وأسند ولايتها إلى أحد رجاله، وغادر إلى المغرب[٧]. ويمكن القول بأنَّ هذه الثورات التي تزعمها الأمير سانشو وكبار الأمراء والنبلاء ضد الفونسو العاشر تُعدُّ من أكبر الإصابات التي أصابت مملكة قشتالة إصابة خطيرة.

أما ألفونسو العاشر فإنه لم ينجح في استرداد مملكته، واستمرت الحرب الأهلية قائمة بين الملك المخلوع وابنه الثائر في حدود العامين. وفي الخامس من ذي الحجة ٦٨٢هـ/الرابع من إبريل عام ١٢٨٤م، مات ألفونسو العاشر بإشبيلية [٨] وهو مهزوم، وقد أرسل سلطان المغرب أبو يوسف المريني وملك غرناطة ابن الأحمر بعزائهم

---

[١] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٣٣٠- ص٣٣٣.

[٢] النشار: علاقة مملكتي قشتالة وأراجون، ص ٦٥.

[3] Soumet: récits l'histoire d'espagne, p.123.

[٤] المدرع: مملكة قشتالة في عهد الفونسو العاشر، ص٣٥.

[5] Thacker and Escobar: Chronicle of Alfonso X, P.5.

[٦] لما شاهد ابن خلدون تاج الملك ألفونسو العاشر في بلاط ملوك بني مرين؛ عدّه فخرًا لبني مرين، وسيظل باقيًا في الأعقاب. تاريخ ابن خلدون، ٢٧١/٧.

[٧] عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ١٠٥/٥؛ المدرع: مملكة قشتالة في عهد الفونسو العاشر، ص٤٨؛ Soumet: récits l'histoire d'espagne, p.123.

[8] Thacker and Escobar: Chronicle of Alfonso X, P.5.

إلى بلاط مملكة قشتالة؛ بالرغم من تباين موقفهما من تلك الأحداث، فقد كان ملك المغرب يساند الملك المخلوع، وأمَّا ملك غرناطة فكان يؤازر ابن الملك الثائر [١].

الخاتمة:

توصّلت الباحثة إلى عديد من النتائج، من خلال استعراض دور ألفونسو العاشر ملك قشتالة في الحروب الصليبية ضدَّ الممالك الإسلامية بالأندلس وخارجها، ومن أهم هذه النتائج:

- إن سياسة العداء الصَّليبي للمسلمين ثابتة لا تتغير مع تغير الملوك في أوروبا قاطبة، سواء كانت في أوروبا، أو المشرق الإسلامي، أو في بلاد المغرب والأندلس.
- استمرت فترة حكم ألفونسو العاشر قرابة ثلاثين عامًا في مملكة قشتالة، وقد أولى الجانب العلمي والثقافي اهتمامًا أكثر من الجوانب الأخرى.
- تبيَّن أن الطابع الثقافي عند ألفونسو العاشر غلب على الجانب السياسي والعسكري؛ حيث كان شاعرًا وأديبًا، وذا باع واسع في الترجمة والفنون.
- قام ألفونسو العاشر بدور كبير في نقل التراث الإسلامي وترجمته إلى اللغة القشتالية، ومنها إلى اللغة اللاتينية.
- خطّط ألفونسو العاشر لنقل ميدان الحروب الصليبية من داخل شبه جزيرة أيبيريا إلى شمال إفريقيا؛ لكنه لم ينجح في ذلك، فتحوّلت الحروب إلى داخل جزيرة أيبريا من جديد وعن طريق شمال إفريقيا.
- أدّت ثورة المُدجّنين في الممالك الإسلامية بالأندلس إلى عرقلة سير الحملات الصليبية داخل الأندلس وخارجها.
- اتسمت علاقة مملكة قشتالة بسلاطين المماليك بطابع تبادل المصالح المشتركة دون حدوث صدام مباشر.
- غلب الطابع العدائي على علاقة ألفونسو العاشر مع دولة بني مرين في المغرب أكثر من العلاقة الطبيعية.
- فرض ألفونسو العاشر عددًا من القوانين ضد المسلمين بالأندلس في الأراضي التي انتصر عليها بقواته، كدفع الجزية، والمنع من بناء المساجد، وغير ذلك.
- اتخذت علاقة ألفونسو العاشر بالممالك الإسلامية المغلوب عليها طابع القوة في فرض التبعية الظالمة.

---

[١] عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٥/١٠٥.

- تبيّن أن علاقة بعض الممالك الإسلامية في الأندلس بمملكة قشتالة كانت تتراوح ما بين التبعية أو الثورة، بحسب اتجاه المصلحة العامة لتلك المملكة.
- اتضح أنَّ فترة التنافس والصراع حول كرسي الحكم؛ عُدّت الفرصة السانحة للعدو حتى يتدخَّل في الشؤون الداخلية للدولة؛ تمهيدًا للسيطرة عليها، في الدول الإسلامية أو النصرانية على حدٍّ سواء.
- أنَّ نشوء الصراع بين ملوك المسلمين؛ دفعهم إلى طلب النجدة من العدو الصليبي؛ لمحاربة إخوانهم المسلمين، سواء في الأندلس أو المغرب.
- أدّت الثورة الشعبية التي تزعّمها سانشو مع كبار أمراء قشتالة ونبلائها ضد والده ألفونسو العاشر إلى خلعه من الحكم.
- تبيَّن أنَّ ألفونسو العاشر لجأ إلى السلطان أبي يوسف المريني، لطلب النجدة فيما يتعلّق بالثورة التي قامت ضده بزعامة ابنه سانشو؛ ونظير ذلك رهن تاج الملك والمملكة عند السلطان المريني بالمغرب؛ لكنه لم يفلح في استعادة العرش؛ فمات مخلوعًا.

المراجع:

أولًا: المصادر العربية:

ابن أبي زرع (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م) على الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٢م.

الذخيرة السنية في الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة، الرباط،١٩٧٢م.

ابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) جمال الدين يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة،١٩٧١م.

ابن حبيب (ت٧٧٩هـ/١٣٣٧م) الحسن بن عمر: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد أمين، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٦م.

الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) ياقوت: معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

الحميري (ت٧٢٧هـ/١٣٢٧م) محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط٣، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م.

ابن الخطيب (ت٧٧٦هـ/١٣٢٧م) محمد السلماني: الإحاطة في أخبار غرناطة. دار الكتب العلمية، بيروت،٢٠٠٣م.

ابن خلدون (ت:٨٠٨هـ/١٤٠٥م) عبد الرحمن بن محمد: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار القلم، القاهرة، ١٩٨٤م.

ابن شداد (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م) محمد بن علي: تاريخ الملك الظاهر، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، تحقيق: أحمد حطيط، بيروت،٢٠٠٩م.

ابن عبد الظاهر (ت:٩٦٢هـ/١٢٩٣م) محيي الدين أبو الفضل عبد الله: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦.

ابن عِذاري (ت٧١٢هـ/١٣١٢م) أحمد المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ١٩٨٥م.

ابن الفرات (ت:٩٠٧هـ/١٥٠١م) ناصر الدين محمد: تاريخ ابن الفرات، تحقيق: قسطنطين رزيق، بيروت، ١٩٤٢م.

المقريزي (ت٨٤٠هـ/١٤٣٦م) تقي الدين أحمد: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد زيادة، القاهرة، ١٩٧٢م.

النويري (ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م) شهاب الدين أحمد: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: سعيد عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م.

اليونيني (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م) قطب الدين محمد: ذيل مرآة الزمان، حيدر أباد، الهند، ١٩٥٥م.

ثانيًا: المصادر الأجنبية:

Soumet, g. (1965). *Récits l'histoire d'espagne*. librairie de l'enfance et de la jeunesse: Paris.

ثالثًا: المراجع العربية والمعربة:

الحجي، حياة ناصر: العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الاسبانية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، مؤسسة الصباح، الكويت ،١٩٨٠م.

بوطالب، عبد الهادي التازي: الإمكانات الاقتصادية والسيادة الدبلوماسية، ندوات اكاديمية المملكة المغربية، فاس، ١٩٨٣م.

خطاب، محمود شيت: العسكرية العربية الإسلامية. ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.

– قادة فتح الأندلس، ج٢، مؤسسة علوم القرآن، منار للنشر، دمشق، ٢٠٠٣م.

ديورانت، ول دايريل: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج١٧، ترجمة: محمد بدران وآخرون، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.

رانسيمان، ستيفن: تاريخ الحملات الصليبية، ج٣، مملكة عكا، ترجمة: نور الدين خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٥٤م.

سرور، محمد جمال الدين: دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م.

السلوم، يوسف إبراهيم: معجم المصطلحات العسكرية، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٠م.

العبادي، أحمد مختار: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت،١٩٦٩م.

العزاوي، رغد جمال: حركة الترجمة في الأندلس وتأثيرها على أوروبا، مركز إحياء التراث العلمي العربي، بغداد، ٢٠١٧م.

-: التأثير الحضاري للأندلس في عهد ألفونسو العاشر، مجلة التراث العلمي العربي، العدد الثالث، جامعة بغداد، ٢٠٠٥م.

عنان، محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م.

-نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦م.

فرحات، يوسف شكري: غرناطة في ظل بني الأحمر، ط ١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م.

الكمون، أحمد: صورة الرسول صلى الله عليه وسلم في الكتابة التاريخية عند ألفونسو الحكيم ١٢٢١م – ١٢٨٤م، مؤتمر السيرة النبوية في الكتابات الإسبانية، جامعة سيدي محمد بفاس، المغرب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠٠٨م.

المحلاوي، حسام محمود المتولي: العلاقات السياسية بين مملكة بني مرين ومملكة قشتالة في عهد السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبدالحق، ٦٥٦هـ- ٦٨٥هـ/١٢٥٨م – ١٢٨٦م، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد ٥٢، يناير ٢٠١٣.

المدرع، إيمان محمد: مملكة قشتالة في عهد ألفونسو العاشر وعلاقاتها بالمسلمين، ٦٥٠هـ-٦٨٣هـ/١٢٥٢م – ١٢٨٣م، رسالة دكتوراه، كلية الآداب للبنات بالدمام، جامعة الدمام، ٢٠٠٩م.

موير، السير وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة: محمود عابدين، وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥م.

النشار، محمد محمود: علاقة مملكتي قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، دار عين، القاهرة، ١٩٩٧م.

هايد، ف: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج٢، ترجمة: أحمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١م.

رابعا: المراجع الأجنبية:

José Gómez, M. (1985). Gómez: Alfonso X o el Sabio. Toledo Diputación Provincial.

Montavez, Pedro Martinez,(1962) "Relaciones de Alfonso X de Castilla con el Sultan mameluco Baybars y sus Sucesores," Al-Andalus, 27 .

O' Callaghan, J. F. (2011). The Gibraltar Crusade. University of Pennsylvania.

- (2003). Reconquest and Crusade in Medieval Spain. University of Pennsylvania

Philadelphia Press.

- (1993)The learned king the reign of Alfonso X of Castile, university of Pennsylvania press.

- (1989)The Cortes of Castile leon 1188- 1350, university of Pennsylvania press.

Obodum, Christian Kusi (2017): Alfonso X and Islam: Narratives of conflict and CO- operation in the Estoria de Espana, phD. Dissertaion, The University of Biringham.

Thacker, S. & Escobar, J. (2002). Chronicle of Alfonso X. the university press of kentucky.